

تعرف على تاريخ هجرة الكتب وانتقال المذاهب

الجزء الثاني

الرحيم] بن أشرس والبهلول بن راشد (العبيسي ت 183هـ/199م)، وبعدهم أسد بن الفرات (الفارسي ت 213هـ/828م) وغيرهم بمذهب مالك؛ فأخذ به كثير من الناس، ولم يزل يفتشوا إلى أن جاء سحنون (بن سعيد ت 442هـ/458م) فغلب في أيامه وقض حلق المخالفين!!

وفي العراق الذي شهد نهضة مالكية في بعض عصوره؛ كان لدخول مذهبهم إلى البصرة قصة طريفة تسببت في نشأة علم 'أصول الفقه'! ففي 'مناقب الشافعي' للبيهقي (ت 458هـ/1067م) أن موسى بن عبد الرحمن بن مهدي قال: 'أول من أظهر رأي مالك.. بالبصرة أبي (= عبد الرحمن بن مهدي ت 198هـ/814م)؛ فإنه] احتجم ومسح الحجامه ودخل المسجد فصلى ولم يتوضأ، فاشتد ذلك على الناس، وثبت أبي على أمره! وبلغه خبر الشافعي ببغداد، فكتب إليه يشكو ما هو فيه، فوضع له كتاب 'الرسالة' وبعث به إلى أبي، فسر به سرورا شديدا، قال موسى: فإني لأعرف ذلك الكتاب بذلك الخط عندنا!!'

تحولات وفرص

أما المذهب الحنبلي فربما كان أقل المذاهب الفقهية الباقية معلومات بشأن وضوح مراحل انتشاره وأوليات نقل مصنفاته؛ ورغم ذلك فإننا واجدون فيها إضاءات يتوازي حجمها مع الحيز الجغرافي المحدود الذي انتشر فيه هذا المذهب تاريخيا، فقد أفادنا الإمام السيوطي -في 'حسن المحاضرة'- بأولية خروج المذهب من العراق حيث نشأ وترعرع، فقال إن الإمام أحمد (بن حنبل ت 241هـ/855م).. كان في القرن الثالث، ولم يبرز مذهبه خارج العراق إلا في القرن الرابع.

ولا ينطلق السيوطي هنا من فراغ في تحديد بداية ظهور الحنابلة في المشهد العلمي خارج موطن نشأتهم العراق؛ إذ يقول الذهبي -في 'السير'- مسجلا الإسهام الحاسم من الإمام الحنبلي الخلال البغدادي (ت 311هـ/923م) في جمع آراء هذا المذهب وصيانته من الاندثار: 'ولم يكن قبله للإمام [أحمد] مذهب مستقل، حتى تبعه هو نصوص أحمد ودونها وبرهنها بعد [سنة] الثلاثمائة (= 300هـ/912م)'.
ويحكم الجوار الجغرافي؛ كانت محطة الحنابلة التالية للعراق غربا هي الشام الذي سيصبح معقلهم الأهم حين يفقدون قلعهم الحصينة بالعراق جراء الاجتياح المغولي للبلاد 656هـ/1252م

فقد وصل التمدد الحنبلي إلى الشام -في النصف الثاني مع من القرن الخامس/الحادي عشر الميلادي- بواسطة الإمام عبد الواحد الشيرازي (ت 486هـ/1093م)، الذي قدم الشام فسكن بيت المقدس فنشر مذهب الإمام أحمد فيما حوله، ثم أقام بدمشق فنشر المذهب وتخرج به الأصحاب؛ حسب ابن رجب الحنبلي في 'ذيل طبقات الحنابلة'.

يعني.....



الشاب عبد الرحمن بن خالد الجمحي المصري (ت 163هـ/880م)، 'أول من أدخل مصر فقه [الإمام] مالك (ت 179هـ/796م)، وبه تفقه ابن القاسم (ت 191هـ/806م) قبل رحلته إلى مالك وكان من الصالحين، وهو من قدماء أصحاب مالك وكان معجبا به ويفهمه؛ كما في 'تاريخ الإسلام' للذهبي.

وفي بلاد الأندلس -التي هيمن فيها الدرس المالكي طوال تاريخها- نجد أن فقيها زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون (ت 193هـ/809م) كان 'أول من أدخل مذهب [شيخه] مالك إلى الجزيرة الأندلسية، وقبل ذلك كانوا يتفقهون للأوزاعي وغيره؛ طبقا للذهبي -في 'تاريخ الإسلام'- الذي يضيف أن ابن القاسم قال:

'سمعت زيادا فقيه الأندلس يسأل مالكا! كما كان الفقيه الأندلسي عيسى بن دينار (ت 212هـ/827م) 'أول من أدخل الأندلس رأي ابن القاسم' الفقيه المالكي المصري الأبرز.

وكان سفير مذهب أهل المدينة إلى المغرب الأقصى (المملكة المغربية اليوم) الفقيه الزاهد ذراس بن إسماعيل القاسي (ت 357هـ/971م)؛ فهو -كما في 'جذوة الاقتباس' لابن القاضي (ت 1025هـ/1616م)- 'ممن أدخل مذهب مالك المغرب، فإنه كان الغالب على المغرب في القديم مذهب الكوفيين (= الحنفية)'.
وتفصيلا لما أجمله ابن القاضي؛ يقول مؤرخ المذهب المالكي القاضي عياض (ت 544هـ/1149م) -في 'ترتيب المدارك'- إن الحنفية غلبوا على إفريقية (= تونس) وما وراءها من المغرب.. إلى أن دخل علي بن زياد (العبيسي ت 183هـ/199م) وعبد

ونحن نجد أحيانا تحديدا دقيقا يرصد دخول هذا المذهب إلى مدن بعينها وليس الإقليم العام فحسب؛ فالذهبي ينص -في 'تاريخ الإسلام'- علي أن دخول المذهب الشافعي إلى أسفرايين -الواقعة اليوم بإيران- من خراسان كان بواسطة الحافظ أبي عوانة الأسفراييني (ت 316هـ/928م)، فهو 'أول من أدخل مذهب الشافعي وتصانيفه إلى أسفرايين، أخذ ذلك عن إبراهيم المزني والربيع المرادي.

كما منح السبكي فضيلة السبق لشهره في مدينة نيسابور تحديدا -وهي من حواضر خراسان- إلى أحمد بن إسحق النيسابوري المعروف بالصبيعي (ت 342هـ/953م) فإنه أول من حمل إليها علم المزني تلميذ الشافعي، والصبيعي هذا ممن حلّاهم الذهبي -في 'سير أعلام النبلاء'- بلقب 'شيخ الإسلام'!

وفي اليمن الذي عاش فيه الإمام الشافعي برهة وغادره إلى العراق سنة 184هـ/800م؛ كان الفقيه إبراهيم الخداسي (ت 450هـ/1059م) 'أول من نشر مذهب الشافعي [هناك]..، وكان [الخداسي] فقيها كبيرا؛ كما في 'قلائد النحر' للطيب بامخرمة الحضرمي (ت 749هـ/1451م). وقد أرجع عفيف الدين الياضي (ت 668هـ/1269م) -في 'مرآة الجنان'- ظهور المذهب الشافعي باليمن إلى عدد من الفقهاء الجلة موردا أسماءهم.

مغادرة للمنشأ

ولعل المذهبيين المالكي والظاهري هما أجدر المذاهب بتتبع الانتشار؛ فرغم نشأتها بالمشرق فإنهما سرعان ما غربا فكان ازدهارهما خارج منطقة الميلاد! ففي مصر غير البعيدة من المدينة المنورة كان الفقيه

'مذهب الشافعي (ت 204هـ/820م) [حين تولّى قضاء] دمشق وحكم به القضاة، وكان الغالب عليها قول الأوزاعي'. لقد كان هذا القاضي شديد الإخلاص لمذهب الشافعي 'يوالي عليه ويصانع! ومن نصرته له أنه شرط لمن يحفظ «مختصر المزني» مئة دينار (أي نحو 16.6 ألف دولار أميركي الآن) يهبها له! وكان رجلا غنيا له مال كثير وضياح (= عقار وأراض) كبار بالشام.

رصد دقيق

ولم يحتج انتقال المذهب الشافعي إلى العراق المجاور للشام إلى دفع أموال لانتشاره كما فعل القاضي الثقفي في الشام؛ فقد قام بالمهمة الفقيه أبو عاصم الأنطاطي (ت 288هـ/901م) الذي يخبرنا تاج الدين السبكي (ت 771هـ/1370م) -في 'طبقات الشافعية الكبرى'- بأنه أخذ المذهب عن تلميذ الشافعي إبراهيم المزني (ت 264هـ/878م) والربيع المرادي (ت 270هـ/883م)، ثم اشتهرت به كتب الشافعي ببغداد، وعليه تفقه شيخ المذهب [بالعراق] أبو العباس بن سريج (ت 306هـ/918م).

ووفقا للذهبي في 'السير'؛ فقد وصل المذهب الشافعي إلى إقليم خراسان بواسطة الإمام محمد بن عبد الوهاب الثقفي (ت 328هـ/940م)، الذي قال إنه 'هو أول من حمل علوم الشافعي ودقائق ابن سريج [من العراق] إلى خراسان'. وأما إقليم ما وراء النهر (= آسيا الوسطى)؛ فقد عرفت المذهب الشافعية على يدي أحمد بن الحسين الفارسي (ت 305هـ/917م) بعد أن تفقه على المزني.. [فكان] أول من درس مذهب الشافعي ببلخ (تقع اليوم بأفغانستان) برواية المزني.

سفراء المذاهب

حين يرى الباحث تراث مذهب فقهي أو فرقة فكرية في قطر من الأقطار الإسلامية؛ يخيل إليه بدهاة أن ذلك الشراء الفقهي والتنظيري والتاريخي قام به -في مبدئه- آلاف الفقهاء ومئات العلماء والحققين أن ذلك الكم الهائل من المؤلفات والعلماء والمناظرات والنضال المذهبي يرجع في بداية أمره غالبا إلى رجل واحد، رحل من مسقط رأسه إلى شيخ المذهب الأول أو أحد تلاميذه الكبار وعاد بالمذهب، أو أن رجلا آخر هاجر من محل ميلاد المذهب وتغرب في مصر من الأمصار فنشر فيه المذهب والعلم الذي ارتضاه.

فهذه مصر كانت غارقة في الولوج بثقافة الملاحم وقصص المواعظ حتى قبض الله لها إماما من أبنائها هو يزيد بن أبي حبيب الثوبي (ت 128هـ/746م)، الذي يصفه الذهبي (ت 748هـ/1348م) -في 'تاريخ الإسلام'- بأنه 'أحد الأعلام.. وكان أسود حبشيا.. وكان مفتي أهل مصر'! ثم يتحدث الذهبي عن الأولية المعرفية التي حظي بها هذا الإمام الحبشي بإحداثه تحولا تاريخيا في أرض الكنانة أصبحت به إحدى كبريات قلاع العلوم النقلية والعقلية في عالم الإسلام؛ فيقول إنه 'هو أول من أظهر العلم والمسائل [الفقهية] والحلال والحرام بمصر، وقبل ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب والملاحم والفتن!!'

وأما بعد تبلور نشأة المذاهب الفقهية في النصف الأخير من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي؛ فقد عرفت مصر -التي أنجبت الإمام الطحاوي الأزدي (ت 321هـ/833م) أحد أعظم أئمة ومؤسلي المذهب الحنفي الذي نشأ بالكوفة- هذا المذهب عن طريق رجل ليس بتلك الشهرة التاريخية، ونقصد القاضي العراقي إسماعيل بن اليسع (ت 167هـ/783م) الذي هو 'أول من أدخل مذهب أبي حنيفة مصر.. وكانوا لا يعرفونه؛ كما في 'رفع الإصر' لابن حجر.

وغير بعيد من الكوفة نفسها؛ نجد أن أول من جلب رأي أبي حنيفة إلى البصرة هو الفقيه يوسف بن خالد السمتي (ت 190هـ/806م)، وهو أيضا -حسب ابن حجر في 'تهذيب التهذيب'- يعد 'أول من وضع كتاب الشروط، أي علم الوثائق الذي يعني بقواعد كتابة السجلات وتوثيق المعاملات المدنية.

ومن الشام -التي نشأ فيها مذهب الإمام الأوزاعي (ت 152هـ/769م)- تحول الفقيه المحدث صعصعة بن سلام (ت 192هـ/808م) إلى الأندلس، فاستوطنها في زمن عبد الرحمن بن معاوية (= عبد الرحمن الداخل ت 172هـ/788م) وابنه هشام (ت 181هـ/796م)؛ وهو أول من أدخل علم الحديث ومذهب الأوزاعي إلى بلاد الأندلس.

وفي المقابل؛ يقول الإمام الذهبي إن القاضي أبا زرعة الثقفي (ت 302هـ/914م) أدخل إلى بلاد الشام